تقديم

شغف الناس فى القديم والحديث بتاريخ العرب فى الأندلس، ووجدوا فى قراءته والاستماع لأحاديثه لذة روحانية عجيبة لا يجدونها فى سواه، ولعل من أسباب هذا الشغف أنهم يقرءون فيه قصة رائعة للبشرية تتقلب فيها أحداث الزمان، وتصطخب صروف الأيام، ويداول الدهر فيها بين شطريه، فهو مرة صفاء لا يشوبه كدر، وابتسام لا تحوم حوله جهومة، وأمن لا يخالطه حذر، وعز راسخ، وقوة، وسلطان، ونعيم، وملك كبير، وهو فى أخرى هم، ونصب، وخذلان، وبلاء مستطير.

إن قصة الأندلس عجيبة حقًّا، مثيرة للنفس حقًّا، فيها من أحاديث البطولة والإقدام ما يعجب له العجب، ويهتز له عطف العربى الكريم، فيها جرأة طارق، وإقدام عبد الرحمن الداخل، وعزيمة الناصر، وعبقرية المنصور، وفيها إلى جانب كل هذا أمثلة رائعة للصبر حين البأس، وللجلد على أشد المكروه، وللتمسك بالعقيدة والسيف مصلت فوق الرءوس، وللثبات فى مأزق يفر فيه الشجاع.

وقصة الأندلس، ككل القصص، كما تصور الرجولة تستهوى النفوس وتسحر العيون، ترسم إلى جانبها الفسولة والجبن،

والحقـد والنفج الكاذب، والشـره فى حطام الدنيـا الزائل، وبيع النفوس للشهوات فى أقبح ما يصوره المصورون.

وتاريخ الأندلس كله عراك ونضال وصخب، لا تكاد تقلب صفحة من صفحاته حتى تسمع قعقعة السيوف، وصليل الرماح: صراع بين ملوك المسـلمين، وصراع بينهم وبين نصارى الشـمال، وصراع بين الأجناس والقبائل، وصراع بـين العقائد والمذاهب، ثم صراع أخير بين الحياة والموت، وبين الأذان والناقوس.

ومـن العجب أنك على الرغم من هذا الاضطراب الشـامل، تقرأ فـى قصة الأندلس صحائف من ذهـب، تتجلى فيها مدنية العرب معجـزة من المعجـزات وآية من الآيـات. فقد كانـت الأندلس فى العصور الوسـطى شـعلة النور ومنار الهدايـة، وكانت جامعاتها بقرطبة، وإشـبيلية، وغرناطـة، وغيرها ملتقى طـلاب العلم من الشـرق والغرب. وكان فيها للأدب والشعر والفنون عامة منزلة لم تكـد تصل إليها أمة، وإذا تحدثنا عن فنون العمارة، والهندسـة، والنقـش، وغيرها، طال بنا الكلام، وخرجنـا عما قصدنا إليه من الإيجاز.

إن سـقوط الأندلـس لم يكن إلا سـقوط النجم المتلألـئ اللامع، وانهيار الجبل الأشم الراسخ، وإن دولة فى الأرض لم تشيع بعبرات العيون، وحسرات القلوب، كما شيعت الأندلس، ولم يبكِ الشعراء ملـكًا طواه الزمان كما بكوا ملـك الأندلس. ولم يقف المؤرخون وهم

يدونون خاتمة أمة - حاسرى الرءوس خاشعين، يرسلون الزفرات - كما وقفوا عند قبر دولة العرب بالأندلس.

خفقت الجوانح بحب الأندلسيين على الرغم مما يزعمه التاريخ من أنهم أعطوا ملكا فلم يحسنوا سياسته، واستناموا إلى الشهوات، واستعان بعضهم على بعض بالأعداء، على أنه يجدر بأهل الرأى ألا يتعجلوا فى الحكم على أهل الأندلس وهم لم يعيشوا فى بيئتهم، ولم يدرسوا أتم الدرس الأحوالَ التى مرت بهم، ولم يدققوا النظر فى نظام الحكم الذى التزمته الأمم فى هذه الأزمان.

إن المسلمين بالأندلس كانوا فى أرض غير أرضهم، وفى إقليم اجتمعت فيه كل صنوف الفتنة والجمال، وكان أعداؤهم من الإسبان يحيطون بهم من كل جانب، وأعداؤهم فى المشرق ينصبون لهم الحبائل - أفبعد هذا نصبّ عليهم اللوم حميمًا، ونحملهم وزر تصاريف الزمان، وتحكّم البيئة، وسيطرة الأحوال التى وضعتهم فيها يد القدر؟

إن العرب عاشوا فى هذه الفتن الجائحة نحو ثمانمائة عام، قلّ أن تستطيع أمة سواهم البقاء فى مثلها. ليقل الشعوبية ما شاءوا، وليقس ابن خلدون وأمثال ابن خلدون على العرب كما أرادوا، أليس من التجنى على الحقائق أن يدعى ابن خلدون أن العرب لا يصلحون لسياسة الأمم، وأنهم أمة جهل وتدمير، وأنهم إذا نزلوا بلدًا أسرع إليه الخراب؟! إن سماحة حكم العرب بالأندلس،

وجمال مدنيتهم، واتساع مدى ثقافتهم أسمى من أن يصل إليه إنكار منكر أو جحود جاحد. وإن فى آثار قرطبة، وإشبيلية، وغرناطة، التى لا تزال ماثلة إلى اليوم من معجزات البناء والهندسة – ما يخجل كل من يدعى أن أمة العرب أمة خراب وتدمير، وأنهم يهدمون القصور ليتخذوا من أحجارها أثافى للقدور، ومن خشبها أوتادًا للخيام. أين هذه الأثافى وأين تلك الخيام من جنات الأندلس الباسمات، وقصورها الشامخات؟ ثم أين هى من عظمة دمشق أيام الأمويين، وجمال بغداد فى حكم العباسيين، وازدهار القاهرة فى عهد الفاطميين؟! إن العرب يبنون ولا يهدمون، وإن الهدامين لآثارهم ومدنياتهم إنما هم أعداؤهم من البربر، والإفرنج، والتتار، وغيرهم، وإذا كانت دول العرب قد منيت بالانحلال السريع فى الشرق والغرب، فإن أكثر السبب فى هذا – فيما يغلب على الظن – إنما يعود إلى نظام الحكم الذى كان قائمًا، لا إلى طبائع العرب أنفسهم. ولو نظرنا فى عهودهم إلى الأمم حولهم فى أقطار الأرض، لرأينا أنها أصيبت بما أصيب به العرب.

والآن نعود إلى قصة الأندلس فنرى أن ما كتبه الأولون فيها لا يشفى نفس القارئ ولا يبل غلته. وهذا كتاب نفح الطيب – وهو خير كتاب فى تاريخ الأندلس – كله اضطراب، واستطراد، وتكرار، والتواء، وتشتت. لهذا كانت خزائن الكتب العربية فى أشد الحاجة إلى مثل كتاب «إستانلى لين بول» الذى سماه قصة

العـرب فى إسـبانيا، والذى قرأته فأحسسـت بدافع نفسـى يلح بوجـوب ترجمته إلى لغة العرب، وشـعرت بـأن النكول عن هذه الرغبة عقوق لحسـبى وقومى وتاريخـى. وإذا كان هذا القلم الذى جردته أربعين عامًا لا يجيد إلا تنميق قصيدة فى الغزل، أو المديح، أو الرثاء، ولا يصـول إلا فوق صفحات من الأدب واللغة، حتى إذا جـاء كاتب إنجليزى محقق فألف كتابًـا بلغته فيه إنصاف للعرب وتاريخهم، وفيه إشـادة بحكمهم وعلمهـم وأدبهم وحضارتهم - انكمش فى دواتـه وأدركه الحصر، فأجدر بهـذا القلم أن يحطم، وأحرى بسـنانه أن يقصف، وأخلـق بصاحبه ألا يباهى مرة أخرى بعروبته...

إن إسـتانلى لـين بول يحب العرب ويتغنـى بمجدهم. ويؤلف لأبنـاء أمته فى تاريخهم كتابًا، أو قـل قصيدة طويلة الذيول كلها ثنـاء وإطراء، وحب وإعجاب، وعطف وحنان، ولوعة وبكاء؛ فهل كان يصـح فى حكم البرّ بالعربيـة، أن يبقى أبناؤها محجوبين عن هذا الكتاب دهرًا طويلا؟

ترجمت الكتاب فارتاحت نفسـى، لأنـى فى حين واحد أذعت فضل العرب على لسان رجل ليس منهم. ثم أذعت فضل هذا الرجل لأنه جدير بإعجاب العرب.

أمـا طريقة لين بول فى التأليف: فجامعـة بين التحقيق العلمى، وربط الحـوادث بعضها ببعض، وتأدية قصـة الأندلس كاملة متصلة

الأواصر، فى أسلوب شائق وسياق رائع. فإنه بعد أن قرأ تاريخ الأندلس فى مراجع شتى بين عربية وإفرنجية، ولقى ما لاقى فى اجتياز ذلك الخضم المضطرب بالروايات والحوادث - استطاع أن يخرج للأدب والتاريخ قصة بديعة الأسلوب، متماسكة الحلقات، لها - مع صدق حقائقها - كل ما للقصص الخيالية من فتنة وسحر.

وقد يداخلك بعض الريب فى أن المؤلف متعصب للعرب، محتطب فى حبلهم، لأنك تراه يقتنص الفرص أو يخلقها للإشادة بدينهم، وسياستهم للأمم، ثم بآدابهم ومدنيتهم التى يعدها شعلة النور فى أرجاء أوربا بعد أن خمدت مدنية الرومان، وزالت حضارة اليونان، ثم إنه رسم لعبد الرحمن الداخل، والناصر، والمنصور بن أبى عامر صورًا من القوة والحزم، والعدل والدهاء، لم يستطع مؤرخ عربى أن يجمع ألوانها، وإذا غمز بعض المحسنين من الأمراء بنقد، كان خفيف المس رفيقًا، حتى إنه لم يبخل بفضلة من عطفه على ملوك الطوائف الذين بددوا شمل الدولة، فأحسن رثاء دولتهم، وبكى فيهم الهمة والسخاء، وإنهاض العلوم، وإعلاء شأن الأدب والشعر، أما حديثه عن مملكة غرناطة وأفول شمس العرب بالأندلس، فلم يكن إلا أنات وزفرات ودموعًا. وقف على أطلال الأندلس كما يقف العاشق المحزون، فبكى مدنية زالت، وفنونًا بادت، وعزًّا طاح مع الرياح، وملكًا كأن لم يمض عليه إلا ليلة وصباح، ومجالس أنس

كانت نغمًا فى مسامع الدهور، ودروس علم هرعت إليها الدنيا وتلفتت العصور. نعم، إن إستانلى لين بول كان يحب العرب حقًّا، ولكن هذا الحب لم يجاوز به الحق، ولم يخدعه عن نفسه، ولم يسلبه صفة المؤرخ المحقق، وكل ما فى الأمر أنه كان صريحًا فى نشر الحقائق، فصدع بها حين أنكرها أو شوه من جمالها كثير ممن يكتمون الحق وهم يعلمون، إن لين بول لم يكن متعصبًا للعرب، ولكنه كان لهم منصفًا، وعلى تاريخهم أمينا، ولهم أخا وصديقًا، حين قل الأخ وعز الصديق، على أن فى الكتاب عتابًا فى مواطن العتاب، ولومًا فى مواضع اللوم، وتعنيف المحب المخلص حين يحسن التعنيف.

ومما تجمل الإشارة إليه: أن المؤلف فى حديثه عن الإسبان خاصة وأهل أوربا عامة - إنما كان يتحدث عن حياة قوم فى العصور الوسطى، أو فى أيام حكم البربون، قبل أن يتسع نطاق المدنية، ويتبلج فجر العصر الحديث الذى غير كثيرًا من أخلاق الناس وعقولهم ونظرهم إلى الأشياء، فإذا نقد المؤلف رجال العهود الماضية بأوربا وإسبانيا، فإنه لن يتردد اليوم فى الحكم بأن الزمن دار دورته، وأن التاريخ لو نظر إلى الخلف لرأى مدنية جديدة وقومًا آخرين.

وقد قصدت فى ترجمة هذا الكتاب إلى ترجمة المعانى مع الحرص على الروح التى أملته، فإن لكل لغة بيانًا. وحسب النقل أن يدرك الغاية، ويصيب اللباب، والله سبحانه المستعان.

على الجارم

جزيرة الروضة
٧ من أكتوبر سنة ١٩٤٧